حياة أعظم الرسل

مَرَضُ الرَّسُولِ وَمَوْتُهُ

مَرَضُ الرَّسُولِ وَمَوْتُهُ

إِشتَدَّ المَرَضُ عَلَى الرَّسولِ ، وَارتَفَعَت الْحَرارَةُ ، وَاشْتَدَّ بِهِ الوَجَعُ ، فَقَالَ ، أَرِيقُوا (صُبُّوا) عَلَيَّ سَبْعَ قِرَبٍ مِن آبارٍ شَتَّى (مُختَلِفَةٍ) ، حَتَّى أَخرُجَ إِلَى النَّاسِ فَأَعهَدَ إِلَيهِم (أُوصِيَهُم) . فَنَفَّذَ أَمرُهُ ، وَصُبَّ عَلَيهِ الماءُ ، حَتَّى جَعَلَ يَقولُ : حَسْبُكُم (كَفاكُم) حَسْبُكُم » .

وَهٰذِهِ أَوَّلُ مَرَّةٍ يَشتَدُّ فِيها المَرَضُ عَلَى الرَّسولِ . وَمَعَ ما كانَ يُحِسُّ بِهِ مِن شِدَّةِ الأَلَمِ وَالْمَرَضِ خَرَجَ ، حَتَّى جَلَسَ عَلَى الْمِنبَرِ ، ثُمَّ قَالَ : « إِنَّ عَبدًا مِن عِبادِ اللهِ

خَيَّرَهُ اللهُ بينَ الدُّنيَا وَبَينَ ما عِندَهُ . فَاختَارَ مَا عِندَ اللهِ » .

فَفَهِمَ أَبو بَكرٍ أَنَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ يُريدُ نَفسَهُ فَبَكَى ، وَقَالَ : بَل نَحنُ نَفدِيكَ بِأَنفُسِنَا وَأَبنائِنَا .

فَقَالَ الرَّسولُ : « عَلَى رِسْلِكَ (مَهْلاً) يَا أَبا بَكرٍ » . ثُمَ قَالَ : « اُنظُرُوا هٰذِهِ الأَبوَابَ المُؤَدِّيَةَ إِلَى المَسجِدِ فَسُدُّوهَا ، إلاَّ بابَ (بَيتِ) أَبِى بَكرٍ ؛ فَإِنِّى لَا أَعلَمُ أَحدًا كانَ أَفضَلَ فِى الصُّحبَةِ عِندى يَداً (نِعمَةً) مِنهُ . وَإِنِّى لَو كُنتُ مُتَّخِذًا مِنَ العِبادِ خَليلاً (صَديقًا) لَاتَّخَذتُ أَبَا بَكرٍ خَلِيلاً . وَلٰكِن

صُحبَةٌ وَإِخاءُ إِيمانٍ حَتَّى يَجمَعَ اللهُ بَينَنَا عِندَهُ » .

فَسُدَّت جَمِيعُ الأَبوَابِ الَّتِى تُؤَدِّى إِلَى الْمَسجِدِ إِلَّا بَابَ أَبِى بَكرٍ .

إِمارَةُ أُسامَةَ وَأَبِيهِ مِن قَبلِهِ دَرسٌ فى (الدِّيمُقْرَاطِيَّة) :

لَقَد أَرَادَ الرَّسُولُ العَظِيمُ أَن يُقَدِّمَ لِلعَالَمِ الإِسلاَمِىِّ دَرسًا فى المُساوَاةِ وَ (الدِّيمُقرَاطِيَّةِ) ، فَجَعَلَ زَيدَ بنَ حارِثَةَ — بَعدَ أَن جُعِلَ حُرًّا — رَئِيسًا لِلجَيشِ ، فَمَاتَ شَهِيدًا ، فَجَعَلَ ابنَهُ أُسامَةَ قَائِدًا لِلجَيشِ فى فِلَسطِينَ وَسِنُّهُ عِشرُونَ سَنَةً بَدَلاً مِن أَبِيهِ ، مَعَ

وُجُودِ عَدَدٍ مِن كِبارِ المُهَاجِرِينَ ، وعُظَمَاءِ الأَنصَارِ ؛ لِيُعطِيَهُم دَرسًا فِى وَضعِ الرَّجُلِ الصَّالِحِ فى الْمَكَانِ الَّذى يَصلُحُ لَهُ ، وَلَو كانَ شَابًّا ؛ لِكِفايَتِهِ المُمتَازَةِ ، مِن غَيرِ تَفكيرٍ فى سِنٍّ أَو نَسَبٍ أَو لَونٍ .

اِستَوْصُوا بِالأَنصارِ خيرًا :

وَبعدَ أَن نَزَلَ عَنِ المِنبَرِ قَالَ : يَا مَعشَرَ (جَماعَةَ) المُهاجِرِينَ ، اِستَوْصُوا بِالْأَنصارِ خَيرًا ؛ فَإِنَّ النَّاسَ يَزِيدُونَ ، وَالأَنصارَ عَلَى هَيئَتِهَا لَا تَزيدُ . وَإِنَّهُم كانُو عَيْبَتِي (خَاصَّتِى وَمَوضِعَ سِرِّى) الَّتِى أَوَيْتُ (نَزَلتُ) إِلَيهَا ،

فَأَحسِنُوا إِلَـى مُحسِنِهِـم ، وَتَجـاوَزُوا (اِصفَحُوا) عَن مُسِيئِهِـم . ثُـمَّ سَكَتَ ، وَسَكَتَ النَّاسُ ، كَأَنَّ عَلَى رُءُوسِهِمُ الطَّيْرَ .

خُطبَتُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ فى مَرَضِ مَوتِهِ :

وَمَعَ شِدَّةِ مَرَضِهِ خَطَبَ فى النَّـاسِ ، وَعَرَضَ نَفسَهُ عَلَيهِم لِيَقتَصَّ مِنهُ مَن أَرادَ ، مَعَ أَنَّهُ كانَ مَعصُومًا مِنَ الخَطَأَ ، طاهِرًا كُـلَّ الطَّهارَةِ ، فى حَيَاتِـهِ وَأَخلاَقِـهِ ، وَأَقوَالِهِ وَأَفعَالِهِ ، وَقَد فَهِمَ المُسلِمُونَ مِن خُطبَتِـهِ

وَنَصَائِحِهِ وَوَصَايَاهُ أَنَّ الأَجَلَ قَد قَرُبَ ، بَعدَ أَن أَدَّى الرِّسالَـةَ كامِلَـةً ، وَنَشَرَ الـدِّينَ الكَامِلَ ، وَأَتَمَّ اللهُ عَلَيهِ نِعمَتَهُ . ﴿ اَلْيَـوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُم دِينَكُـم ، وَأَتمَمْتُ عَلَيكُـم نِعْمَتِى ، وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسلاَمَ دِينًا ﴾ .

فَلَمَّا اشتَدَّ مَرَضُ الرَّسولِ خَافَ الصَّحابَةُ وَالمُسلِمُـونَ ، وَاضطَـرَبَت نُفُوسُهُـم ، وَحَزِنَت قُلوبُهُم . وَفى أَثناءِ مَرَضِهِ الشَّدِيدِ كانَ المُصطَفَى يُفكِّرُ فى أَحوَالِ المُسلِمينَ ، وَفى الأُمَّةِ الإِسلاَمِيَّةِ ، وَفِى جَيشِ أُسامَةَ ،

وَيُفكِّرُ فى الأَنصَارِ بَعدَ موتِهِ . وَلِتَنفِيذِ أَمرِ الرَّسولِ جَهَّزَ النَّاسُ الْجَيشَ ، وَخَرَجَ أُسامَةُ ، وَخَرَجَ جَيشُهُ مَعَهُ ، وَأَقامَ أُسامَةُ وَالنَّاسُ بِالمُعسكَرِ قُربَ المَدينَةِ ؛ لِيَنْظُرُوا مَا يَقضِيهِ اللهُ فى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَليهِ وَسَلَّمَ .

الرَّسُولُ فى حَيَاتِهِ :

لَقَد تَعِبَ الرَّسُولُ كَثيرًا فى حَيَاتِهِ ، فَقَد وُلِدَ يَتيمًا ، وَتَرَبَّى يَتيمًا ، وَلٰكِنَّ عِنَايَةَ اللهِ كَانَت تَرعَاهُ دَائِمًا . وَمَكَثَ بَعدَ الرِّسالَةِ ٢٣ سَنَةً فى تَعَبٍ وَجِهادٍ لِدَعوَةِ النَّاسِ جَميعًا

إِلَى عِبادَةِ اللهِ وَحـدَهُ ، وَنَشْرِ الإِسلاَمِ . وَبَذَلَ مَجهودًا لَم يَبْذُلْهُ أَحَدٌ قَبلَهُ مِنَ الأَنبياءِ — فِى سَبيلِ القَضاءِ عَلَى عِبادَةِ الحِجارَةِ وَالأَصنَامِ وَالكَواكِبِ . وَقَاسَى (تَعِبَ) كَثيرًا مِن أَلْوانِ الْعَذَابِ مِن كُفَّارِ قُـرَيشٍ وَالطَّائِفِ ، وَمِن مُؤَامَراتِ اليَهودِ فى كُلِّ مَكانٍ ، وَلٰـكِنَّهُ صَبَرَ وَاستَمَرَّ يَدعُو بإِيمانٍ قَوِىٍّ — إِلَى دِينِ اللهِ ، سِرًّا وَجَهراً ، بِإِرادةٍ لَا تَعرِفُ التَّرَدُّدَ ، حَتَّـى نَصَرَهُ اللهُ نَصرًا وَاضِحًا ، وَدَخَلَ النَّـاسُ جَماعـاتٍ فى الْإِسلاَمِ ، وَأَقبَلُوا عَلَيهِ مِن كُلِّ مكـانٍ ،

مُعلِنينَ إيمانَهُم بِاللهِ الْواحِدِ الأَحَدِ ، وَرَسولِهِ المُصطَفَى العَظيمِ .

فِى اليومِ التَّالِى لِخُطبَةِ الوَدَاعِ :

وَفِى اليومِ التَّالِى لِخُطبَةِ الوَدَاعِ حَاوَلَ الرَّسولُ أَن يُصَلِّىَ بِالمُسلِمينَ كَعَادَتِهِ ، فَلَم يَستَطِعْ لِشِدَّةِ مَرَضِهِ ، فَقَالَ : « مُرُوا (يَجبُ أَن تَأْمُرُوا) أَبَا بَكرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ » . فَكانَ أَبو بَكرٍ يُصَلِّى بِالنَّاسِ وَالرَّسولُ مَريضٌ .

مَاذَا فَعَلَ بِسَبعَةِ دَنانِيرَ كانَت عِندَهُ ؟

وَكانَ عِندَ الرَّسولِ قَبلَ مَرَضِهِ سَبعَةُ دَنَانِيرَ ، فَلَمَّا أَفاقَ مِن إِغمائِهِ سَأَلَ عائِشَةَ :

مَاذَا فَعَلُوا بِهَا ؟ فَأَجَابَت عَائِشَةُ أَنَّهَا عِندَهَا . فَطَلَبَ مِنهَا إِحضَارَهَا ، فَأَحضَرَتهَا ، ثُمَّ قَالَ : مَا ظَنُّ مُحمدٍ بِرَبِّهِ لَو لَقِيَ اللهَ وعِندَهُ هٰذِهِ ؟ ثُمَّ وَزَّعَهَا عَلَى الفُقَرَاءِ وَالْمسَاكِينِ قَبلَ وَفاتِهِ (مَوتِهِ) فِى اليَومِ الَّذى اختَارَهُ الرَّفيقُ الأَعلَى (اللهُ) :

وَفِى يَومِ الاِثنَينِ الَّذى اختَارَهُ اللهُ فِيهِ إِلى جِوارِهِ ، خَرَجَ رَسولُ اللهِ إِلى النَّاسِ ، وَهُم يُصَلُّونَ الصُّبحَ ، وَهُوَ عَاصِبٌ رَأْسَهُ ، وَأبو بَكرٍ يُصَلِّى بَالنَّاسِ ، فَكَادَت عُقولُ المُسلِمينَ تَذهَبُ مِن شِدَّةِ الفَرَحِ ، بِتَحَسُّنِ

صِحَّةِ الرَّسولِ ، حِينَ رَأَوْهُ ، وَفَرِحُوا وَزَالَ مَا كانَ عَندَهُمْ مِنَ الغَمِّ ، فَعَرَف أَبو بَكرٍ أَنَّ النَّاسَ لَم يَصنَعُوا ذٰلِكَ إِلَّا لِرَسولِ اللهِ ، فَرَجَعَ عَنَ مَكَانِ صَلاَتِهِ ، فَأَشارَ الرَّسولُ لِيَستَمِرَّ فِى صَلاَتِهِ ، وَقَالَ : « صَلِّ بِالنَّاسِ » وَجَلَسَ المُصطَفَى إِلَى جَنبِهِ ، فَصَلَّى قاعِدًا عَن يَمينِ أَبِى بَكرٍ ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنَ الصَّلاةِ ، كَلَّمَ النَّاسَ ، وَتَبَسَّمَ سُرورًا لِمَا رَأَى مِن هَيئَةِ المُصَلِّينَ فى صَلاَتِهِم .

وَظَنَّ الحاضِرُونَ أَنَّ الرَّسولَ قَد شُفِىَ مِن مَرَضِهِ .

وَقَالَ لَهُ أَبو بَكرٍ : يَا نَبِيَّ اللهِ ، إِنِّى أَراكَ قَد أَصبَحتَ كَما تُحِبُّ بِنِعمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضلٍ .

الصَّحوَةُ قَبلَ المَوتَ بِقَليلٍ : وَقَد فَرِحَ جَميعُ المُسلِمينَ فَرَحًا لا نِهايَةَ لَهُ بِما ظَهَرَ مِن تَحَسُّنٍ كَبيرٍ فى صِحَّةِ المُصطَفَى . وَهٰذِهِ هِيَ الصَّحْوَةُ الَّتِى تَحدُثُ قَبلَ المَوتِ بِقَليلٍ .

وَفَاةُ المُصْطَفَى صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم :

رَجَعَ رَسولُ اللهِ مِنَ المَسجِدِ ، وَاضطَجَعَ فى حِجرِ عَائِشَةَ . وَأَحَسَّت أَنَّ المُصطَفَى يَثقُلُ فى حِجرِهَا . فَنَظَرَت فِى وَجهِهِ ، فَوَجَدَتهُ قَد فَتَحَ عَينَيهِ وَهُوَ يَقُولُ :

« بَلِ الرَّفيقُ الأَعلَى مِنَ الجَنَّةِ » .

قالَت عَائِشَةَ خَيَّرَكَ اللهُ فَاختَرتَ مَا عِندَهُ .

وَمَاتَ رَسولُ اللهُ وَهُوَ فِى حِجرِهَا .

فَوَضَعَت رَأسَهُ عَلَى وِسادَةٍ . وَكانَ ذٰلِكَ فى يَومٍ شَديدِ الحَرارَةِ ، فى يَومِ الاِثنَينِ الثَّانِى عَشَرَ مِن رَبيعٍ الأَوَّلِ بَعدَ تَمامِ عَشْرِ سَنَواتٍ لِلهِجرَةِ (٨ مِن يونْيَة سَنَة ٦٣٢ مِيلادِيَّة) .

مَاذا حَدَثَ بَعدَ الوَفاةِ ؟

سَمِعَ المُسلِمُونَ بِمَوتِ الرَّسولِ ، فَلَم يُصَدِّقوا ؛ لِأَنَّهُم رَأَوْهُ فى الصَّباحِ فى صِحَّةٍ ، رَافِعًا صَوتَهُ وَهُوَ يَخطُبُ فى المَسجِدِ . وَلَم

يُصدِّقْ عُمَرُ أَنَّ رَسولَ اللهِ ماتَ . فكَانَ المُسلِمونَ فى ذُهولٍ وَاضطِرابٍ ، وَالْتَفُّوا حَولَ عُمَرَ ، وَاعتَقَدُوا أَنَّ مُحمدًا لَم يَمُتْ ؛ لِأَنَّهُ كانَ بَينَهُم مُنذُ وَقتٍ قَصيرٍ ، يُصَلِّى ، وَيَخطُبُ ، وَيوُصِى بِالأَنصَارِ خَيرًا ، وَينصَحُ لِلمُسلِمينَ ، وَيَدعُو لَهُم ، وَيَطلُبُ مِنهُم أَن يَقتَضُّوا مِنهُ إِن كانَ قَد أَلحَقَ بِهِم ضَرًا .

مَوقِفُ أَبى بَكرٍ بَعدَ وَفَاةِ الرَّسُولِ :

دَخَلَ أَبو بَكرٍ عَلَى رَسولِ اللهِ فى بَيتِ ابنتِهِ عائِشَةَ ، وَرَسولُ اللهِ مُغطًّى بِثَوبٍ ،

فَقَبَّلَهُ وَقَالَ : أَفدِيكَ بِأَبِي وَأُمِّي . مَا أَطيَبَكَ حَيًّا ، وَمَا أَطيَبَك مَيِّتًا ! ثُمَّ رَدَّ البُـرْدَ (الثَّوبَ) عَلَى وَجهِ المُصطَفَى ، ثُمَّ خَرَجَ وَعُمَرُ يُقولُ لِلنَّاسِ : « إِنَّ مُحمدًا لَـم يَمُتْ » . فَقَالَ أَبو بَكرٍ : مَهلاً يا عُمَرُ ، ثُمَّ خطَبَ قائِلاً : أَشهَدُ أن لَا إِلـٰهَ إِلاَّ اللهُ وَحدَهُ لِا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَشهَدُ أَن سَيِّدَنَا مُحمدًا عَبدُهُ وَرَسولُهُ ...

أَيُّها النَّاسُ ، مِن كانَ يَعبُدُ مُحمدًا فَـإِنَّ مُحمدًا قَد ماتَ ، وَمَن كانَ يَعبُدُ اللهَ فَإِنَّ اللهَ حَيٌّ لاَ يَموتُ . ثُمَّ قَرَأَهـٰذِهِ الآيَةَ : ﴿ وَما مُحمّدٌ إِلا رَسولٌ قَد خَلَتْ (مَضَتْ) مِن

قَبلِهِ الرُّسُلُ ، أَفَإِن مَاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُم (رَجعتُم إِلَى الكُفرِ وَالضَّلَالِ) وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ (وَمَن يرتَدَّ عَنِ الإِسلَامِ) فَلَن يَضُرَّ اللهَ شَيئًا ، وسَيَجْزِى اللهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ .

فَعَلِمَ المُسلِمونَ أَنَّ الرَّسولَ قد انتَقَلَ إِلَى الرَّفيقِ الأَعلَى ، فى عَالَمِ الْخُلودِ بَعد أن أَدَّى رِسَالَتَهُ كامِلَةً ، وَكَوَّنَ خَيرَ أُمَّةٍ أُخرِجَت لِلنَّاسِ . وَلَن تموتَ آثارُهُ الخالِدَةُ ، وَمبادِئُهُ السَّامِيَةُ ، وَأَفعالُهُ العَظيمَةُ ، وَأَحاديثُهُ الشَّرِيفَةُ .